الإشكاليات المنهجية فى الدراسات البينية

أ.د، بركات عبد العزيز

أستاذ بكلية الإعلام جامعة القاهرة
وكيل الكلية لشؤون الدراسات العليا والبحوث

تمهيد
أولاً: ما المقصود ببرامج الدراسات البينية ؟
ثانياً: أبرز الإشكاليات المنهجية
- **إشكالية التحيز**
- **إشكالية المعايير**
- **إشكالية المألوفية**
- **إشكالية التراكمية**
- **إشكالية التقييم**
- **إشكالية الانفجار المعرفى**
- **إشكالية اللغة**
- **إشكالية الطريقة**
- **إشكالية الأدوات**
- **إشكالية اختلاف الرؤى**

ثالثاً: ماذا نستطيع أن نفعل؟

تمهيد:

يعتبر التقسيم الكلاسيكى للمعرفة إلى حقول معرفية تقليداً جامعياً عريقاً استقر منذ زمن الإغريق القدماء وهو تقسيم استمر إلى العصور الوسطى، وقد ترسخ هذا التقسيم الكلاسيكى مع ظهور الجامعات الأوروبية وما شهدته المجتمعات الغربية من تطور،كما أن هذا التقسيم استقر مع تحديد ملامح مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانيات، والتى تطورت منذ أواخر القرن التاسع عشر وواصلت تطورها أن أصبحت على الشكل الذى هى عليه الآن.

لكن المتطلبات الديناميكية المستمرة للمجتمعات الحديثة ذات الطبيعة المعقدة، والتداخل بين التخصصات، ظهرت معه الحاجة إلى ماهو أوسع وأعمق من التخصص، ومن هنا بدأت دراسات تبحث فى موضوعات تخصصية لكن من منظور علاقة هذه الموضوعات بالحقول المعرفية الأخرى. هذا التوجه فى العلوم الاجتماعية والإنسانيات لم ينعكس فى الدراسات الجامعية بشكل عميق إلا فى سبعينيات القرن الماضى، من خلال المنهج الجديد نسبياً، الذى اصطلح على تسميته بمنهج الدراسات البينية interdisciplinary Research))

ونظراً لأهمية الدراسات البينية فقد اهتمت بها الجامعات والمؤسسات العلمية الكبرى، وقامت مؤسسة العلوم الوطنية NSF والمعهد الوطنى للصحة NIH الأمريكيتين بوضع معايير تفصيلية لهذه الدراسات، واعتمدت عليها برامج الدراسات البينية فى جامعات عالمية ذات سمعة متميزة فى العديد من دول العالم، كما أن بعض الجامعات العربية بها برامج للدراسات البينية.

أولاً: ما المقصود ببرامج الدراسات البينية ؟

من منطلق الفكرة محل النقاش فإن "النظام dis-cipline فى هذا السياق هو فرع من فروع المعرفة أو حقل دراسى يقع ضمن أى من الثلاث مجموعات أو التخصصات التالية:

- العلوم الطبيعية (الفيزياء والكيمياء والبيولوجى والجيولوجيا والزراعة ومختلف المجالات الهندسية
- العلوم الاجتماعية: علم النفس، القانون، علم الإنسان، علم الاتصال ،الاقتصاد، العلوم السياسية، علم الاجتماع
- العلوم الإنسانية: الفنون، الأدب، التاريخ، الفلسفة، الدين، المسرح، والموسيقى

إن الدراسات البينية يعبر عنها المصطلح الإنجليزى Interdisciplinary Studies ومن الواضح أن المصطلح Interdisciplinary يتكون من مقطعين أساسيين، مقطع Inter وتعنى "بين" وكلمة "نظام" discipline وتعنى مجال دراسى معين.

الدراسات البينية هى دراسات تعتمد على حقلين أو أكثر من حقول المعرفة للإجابة على الأسئلة ذات الأهمية، أو حل المشكلات الحيوية، أو فهم موضوع معقد وواسع، بحيث يصعب التعامل معه بشكل كاف عن طريق نظام أو تخصص واحد.

ومع تطور الرؤى والتقدم العلمى المتواصل فى التخصصات المعرفية المختلفة أصبحت الدراسات البينية تشمل أكثر من تخصص دقيق حتى داخل التخصص العام ضمن النظام الواحد.

خلط غير مبرر:

هناك خلط بين مصطلح الدراسات البينية Inter-disciplinary من جهة والدراسات متعددة النظم Mul-tidisciplinary من جهة ثانية. إن الدراسات البينية تجمع بين نظامين أو تخصصين لحل مشكلة ما عن طريق التكامل بينهما للوصول إلى فهم أعمق للمشكلة، ووضع الحلول لها بالاستناد إلى حقل معرفى متكامل. أما الدراسات متعددة النظم فهى تجمع بين نظامين لدراسة مشكلة من أبعاد متعددة دون التكامل المنهجى والفكرى بين هذين النظامين .

ثانياً: أبرز الإشكاليات المنهجية

يمكن الحديث عن الإشكاليات المنهجية فى الدراسات البينية من خلال العناصر التى تشكل الطريقة والإجراءات التى تتبع فى دراسة مشكلة معينة، بدءً من اختيار الموضوع، مروراً بصياغة مشكلة الدراسة ومراجعة الأدبيات السابقة التأطير النظرى، وصياغة التساؤلات والفروض، واختيار الأدوات والمصادر والعينات، وجمع البيانات...وكتابة التقرير النهائى. أى أن هناك جوانب متعددة تشكل أطراً لوجود إشكاليات منهجية فى الدراسات البينية، لكن فى ضوء خبرتى بالدراسات البينية يمكن الإشارة إلى الإشكاليات الآتية:

١- إشكالية التحيز Bias بمعنى تحيز الباحث لتخصصه الأصلى. ومما يدعم هذا التحيز وجود تفاوت معرفى -كمى ونوعى- بين التخصص الأصلى والتخصص الآخر، إن الباحث يمتلك معرفة أكثر فى تخصصه الأصلى مقارنة بالتخصص الآخر. نفترض أن باحثاً متخصصاً فى مجال علم النفس يدرس موضوعاً يجمع بين علم النفس وعلم السياسة. إن هذا الباحث يمتلك

معرفة أكثر وأعمق فى مجال علم النفس مقارنة بمعرفته فى علم السياسة... هذا الباحث قد يتحيز لما يعرفه ضد ما يجهله. ويرتبط بالتحيز ما يعرف بالإدراك -Per ceptionوأقصد به "الفهم التقييمى الخاص"، بمعنى رؤية الباحث أو تقييمه لتخصصه مقارنة بالتخصص الآخر.

فالكثير من الباحثين يدركون أن تخصصهم الأصلى هو الأهم وهو الجدير بالاعتبار أكثر من التخصص الآخر... أو أن تخصصهم هو الأنضج والأقوى..إنهم لا يقرون بأهمية كل التخصصات العلمية ، لكن هناك فارقاً نوعياً -من وجهة نظرهم- بين هذه التخصصات، وذلك لصالح تخصصهم.هذه الرؤية المتحيزة تنعكس على مكونات البحث بما فى ذلك اختيار موضوع البحث والمنهج والتنظير والنتائج والاستخلاصات

٢- إشكالية المعايير Standards هناك معايير بحثية فى جميع التخصصات تتضمن قيما عامة أساسية (مثل الموضوعية، دقة تحديد المتغيرات، كفاءة الأدوات، دقة اختيار العينة، دقة ضبط المتغيرات...الخ) لكن الالتزام بهذه المعايير يتفاوت من تخصص إلى آخر.... وهذا يرجع فى جانب منه إلى درجة النضج العلمى فى التخصص، كما يرجع إلى مستوى "الأكاديمية" "والمنهجية" لدى المعنيين فى هذا التخصص وما يرسونه من تقاليد بحثية. وفى الدراسة البينية فإن الباحث يتأثر بالمعايير السائدة فى تخصصه، فقد تكون هذه المعايير فائقة النضج والالتزام أو العكس، وقد تكون كذلك فى التخصص الآخر (الذى تشمله الدراسة البينية)، هذا التفاوت فى الالتزام بالمعايير يجعل الدراسة البينية متفاوتة الجودة ، بمعنى أن بعض أجزائها يتصف بالتكامل والرصانة ، أما البعض الآخر فيتصف بالضعف والسطحية والركاكة .

٣- إشكالية المألوفية Familiarity إن الباحث فى كل تخصص يكتسب تلقائياً سلوكيات وتقاليد معينة جراء تعامله مع الأشخاص والبيئات العلمية النشطة فى مجال تخصصه. إنه يألف ممارسات بحثية معينة فى مجال التخصص تختلف عن الممارسات البحثية فى التخصصات الأخرى، وينعكس ذلك على العملية البحثية:

فالباحث فى مجال الإعلام مثلاً يألف أساليب تحديد وقياس المتغيرات فى مجال الإعلام

والباحث فى مجال الاقتصاد يألف أساليب تحديد وقياس المتغيرات فى مجال الاقتصاد.

.. لكن أى منهما لا يألف تحديد وقياس المتغيرات فى مجال علم النفس...

مثال:

لنفرض مثلاً أن باحثاً متخصصاً فى الاقتصاد يقوم بدراسة على عينات من الجمهور المصرى وعنوانها: " العامل الاقتصادى كمفسر لسيكولوجية الشخصية المصرية". واضح من هذا العنوان أن الدراسة تجمع بين الاقتصاد Economyوعلم النفس ... Psychology إن الباحث بحكم تخصصه فى الاقتصاد من السهل عليه تناول المتغيرات الاقتصادية، أو متغيرات العامل الاقتصادى، لكنه سيجد صعوبة فى تحديد وصياغة وقياس الجانب السيكولوجى وكيفية إحداث التكامل بينهما لتفسير سيكولوجية الشخصية المصرية فى متغيرات العامل الاقتصادى، والوصول من ذلك إلى خطة عمل Action Planواقعية وقابلة للتطبيق

٤- إشكالية التراكمية .Accumulation فمن الثابت أن تكوين الباحث فى تخصص معين إنما هو تكوين تراكمى، وتترسخ معرفته ومهاراته فى تخصصه على مدار سنوات، وبموجب ذلك يمكنه إجراء بحوث ناضجة فى هذا التخصص الذى تمرس فيه. إن هذه التراكمية تنعكس بشكل أو بآخر- على الدراسات البينية ...

فالباحث المتخصص فى علم الاجتماع الأسرى قد يدرس " أثر وسائط الإنترنت على التفاعل الاجتماعى داخل الأسرة المصرية".. هذا الباحث يمكنه الصياغة النظرية للتفاعل الاجتماعى والمتغيرات الأسرية وغير ذلك

من المتغيرات التى تدخل ضمن تخصصه الأصلى... غير أنه سوف يجد صعوبة وهو بصدد اختيار وصياغة نظرية تأثير وسائل الإعلام الحديثة، ومتغيرات هذا التأثير والعوامل المؤثرة فيه، والمتغيرات الوسيطة ذات الدلالة للعلاقة بين استخدام وسائط الإنترنت من جهة والتفاعل الاجتماعى من جهة ثانية.

٥- إشكالية التقييم Evaluation إن عملية التقييم تنسحب على المنهج بمفهومه وإجراءات تطبيقه.. لكن على سبيل المثال:

- الباحث فى مجال تخصصه يمكنه تقييم الأدوات ويختار منها الأنسب والأكفأ

- كما يختار من الدراسات السابقة أكثرها أهمية وأشدها دلالة لموضوع البحث،،،

- وعلى ذلك فإن الباحث فى الدراسة البينية إذا كان بإمكانه أن يجرى تقييماً سليماً للأدوات والدراسات السابقة فى مجال تخصصه، فإنه عرضة لأن يحصل على دراسات سابقة غير مهمة، وأدوات غير مناسبة فى التخصص الآخر

٦- إشكالية الانفجار المعرفى Information Explosion فهناك سيل دافق من المعلومات فى كل التخصصات العلمية، وتعتبر قواعد البيانات الرقمية Digital Data Basesمن أهم مصادر المعلومات للبحوث العلمية ... إن ثراء وتنوع قواعد البيانات جعل الباحث فى "بحر" قوامه ملايين الدراسات فى مجال تخصصه، مما يجعله يجد صعوبة فى الاختيار، فإذا كان ذلك فى التخصص الأصلى للباحث فما بالنا بالتخصص الآخر الذى تشمله الدراسة البينية؟

٧- إشكالية اللغة Language من المعروف أن معظم أدبيات وأدوات البحوث تنشر باللغة الإنجليزية، غير أن هناك بحوثاً ذات قيمة علمية عالية تنشر باللغة الفرنسية، أو الألمانية أو الإسبانية أو الروسية. هذه الإشكالية تنعكس على الدراسات البينية، نفترض أن أحد الباحثين فى تخصص القانون يقوم بدراسة تجمع بين القانون والإعلام، فى هذه الحالة سيجد ألوف الدراسات عن الشق الإعلامى لكنها باللغة الإنجليزية التى قد لا يجيدها خاصة من حيث المصطلحات التخصصية ذات الدلالة الأساسية للبحث..... فى هذه الحالة لن تأتى الدراسة بالمستوى المطلوب بسبب عائق اللغة، ذلك أن باحثى القانون درجوا على الاعتماد على اللغة الفرنسية المعروفة بثرائها بالمصطلحات القانونية المتخصصة.

٨- إشكالية الطريقة Method فهناك تخصصات علمية تعتمد على الطريقة الكيفية (Qualitative Meth-od) وهناك تخصصات تعتمد على الطريقة الكمية (Quantitative Method) وهناك تخصصات تجمع بين الطريقتين (الكمية والكيفية).

تنعكس تلك الفكرة على البحوث البينية، فقد تكون الدراسات فى تخصص معين تعتمد على الطريقة الكيفية، فإذا تم القيام بدراسة بينية تقتضى استخدام الطريقة الكمية أو تقتضى المزج بين الطريقتين الكمية والكيفية، فإن الباحث سيضطر إلى استخدام طريقة لا يتقنها، أو غير مألوفة له، وهذا ينعكس على جودة الدراسة.

أضف إلى ذلك اختلاف الطريقة Method التى تستخدم فى البحوث... فهناك بعض التخصصات تعتمد على منهج المسح بطرقه المتعددة، وتخصصات أخرى تعتمد على المنهج التجريبى أو شبه التجريبى، أو الطريقة المقارنة، أو المنهج التاريخى، أو الطريقة الطولية أو المستعرضة ...الخ

٩- إشكالية الأدوات Tools تتباين التخصصات العلمية من حيث طبيعة وكفاءة أدوات جمع البيانات المستخدمة فيها:

- ففى مجال علم النفس والتربية مثلاً هناك مقاييس واختبارات علمية مقننة ومتطورة (مثل مقاييس الذكاء،والقلق ، والاكتئاب واضطرابات ضغوط ما بعد

الصدمة، التوافق النفسى، الصحة النفسية، واختبارات الشخصية، واختبارات التحصيل .الخ)، مثل هذه الأدوات المقننة إنما تم تطويرها وتطبيقها فى بيئات مختلفة، ولها مفاتيح تصحيح ودرجات معيارية.... المشكلة أن هذه الأمور لا توجد فى الكثير من التخصصات الأخرى.

– نفرض أن هناك دراسة بينية عن العلاقة بين القلق واستخدام وسائط الاتصال الحديثة لدى الشباب". واضح أن الموضوع يجمع بين علم النفس الإكلينيكى وبين الإعلام... فيما يخص القلق ، سيجد الباحث مقاييس مقننة Standardized Scales وتتوافر فيها كافة المواصفات المطلوبة للقياس ومعروفة عالمياً وذلك فيما يخص القلق Anxiety أما فيما يخص استخدام وسائط الاتصال الحديثة فسوف يجد الباحث مجرد استبيانات Questionnaires لا يوجد اتفاق على كفاءتها من حيث الثبات والصدق Reliability & Validity بل إن كل باحث يقوم بإعداد المقياس الخاص بدراسته، والكل يزعم بأن المقياس الذى أعده تتوفر فيه أعلى درجات الصدق والثبات. وفى إطار الأدوات أيضاً، تأتى الإشكالية من أن كل تخصص يشيع فيه استخدام أدوات معينة ويندر فيه استخدام أدوات أخرى :

- ففى علم النفس والتربية يشيع استخدام الاختبارات والمقاييس Tests &Scales
- وفى علم الاجتماع يشيع استخدام الاستبيان Questionnaire والملاحظة Observation
- وفى علم الأنثربولوجى يشيع استخدام دراسة الحالة Case Study والمقابلات المتعمقة In-depth Interviews
- وفى مجال العلوم السياسة يشيع استخدام التأصيل النظرى Theoretical التحليلى، وتحليل الخطاب وكذلك النماذج Models
- وفى مجال الإعلام والاتصال بالجماهير يشيع استخدام الاستبيان وصحيفة تحليل المحتوى ونماذج تحليل الخطاب... ..... الخ،

ومن الطبيعى أن يتأثر الباحث أو يلتزم باستخدام أدوات معينة فى مجال تخصصه الأصلى، فإذا كانت هناك دراسة بينية تجمع بين هذا التخصص وتخصص آخر، فإن الباحث يكون على دراية بالأدوات فى تخصصه بدرجة تفوق درايته بالأدوات فى التخصص الآخر... إن غياب أو قلة الدراية بأدوات جمع البيانات يؤدى ليس فقط إلى سوء اختيار الأداة المناسبة ولكن أيضاً إلى سوء تطبيقها، وبالتالى ضعف مستوى جودة البحث البينى

١٠- إشكالية إختلاف الرؤى:

هناك من يرى أن الالتزام بالتخصص ضرورى لأنه احترام للتخصصات العلمية المختلفة، وإثراء كل تخصص بالبحوث التى تناسبه، كما أن الالتزام بالتخصص لا يعنى الانغلاق، فأى بحث فى تخصص معين يمكنه الاستفادة من التخصصات الأخرى فى حدود ما يثريه ويكسبه العمق والتكامل. فى مقابل ذلك هناك رؤية مناقضة تماماً، وخلاصة هذه الرؤية ما يلى:

– إن الالتزام بالتخصص أدى إلى الانغلاق والتضييق... لأن تخندق البحوث داخل التخصص يتعارض مع حقيقة الواقع باعتباره تشكيلا متنوعا من المشكلات والظواهر المتداخلة

– إن الاهتمام بالدراسات البينية يجعل الباحث يعزل نفسه عن صميم تخصصه الأصلى ، وأن الدراسات البينية تركز على هوامش التخصصات ، الأمر الذى يقلل من سمعة وثقل الباحث فى مجال تخصصه

– إن التخندق داخل التخصص أدى فى كثير من الأحيان إلى نتائج بحثية غير قابلة للتطبيق وتقف عاجزة أمام المشكلات القائمة

– إن التخندق داخل التخصص يقيد حركة انتقال المعرفة بين القنوات البحثية المختلفة، ويرسخ فلسفة الانغلاق وعدم الانفتاح على المنجز البحثى للتخصصات

المختلفة، ويقيد إمكانية تعديل استراتجيات البحوث أو تعميقها أو تغييره، وبالتالى -حسب هذه الرؤية- هناك ضرورة للاهتمام بالدراسات البينية وتجاوز الرؤى النمطية التقليدية فى البحث العلمى

ثالثاً: ماذا نستطيع أن نفعل؟

إن إشكاليات المنهج فى الدراسات البينية لا تنفصل عن مشكلات هذه الدراسات ككل. فالنظام الأكاديمى مازال يرتكز إلى حد كبير على تخصصات محددة وأنظمة محددة مما جعل إدماج الدراسات البينية غير مألوف لدى الكثير من الباحثين، بل ويرونه يخلق الحواجز أمام نمو التخصصات وتعمقها من حيث المناهج والموضوعات. كما أن الكثير من أعضاء هيئة التدريس يفتقرون إلى الاهتمام والخبرة فى ممارسة الدراسات البينية، فى الوقت الذى تحتاج هذه الدراسات الاهتمام والخبرة والعمل الجماعى. بجانب ذلك فإن المتخصصين فى المجالات المعرفية الراسخة يشعرون بأن الدراسات البينية تهدد تخصصاتهم،

هناك أيضاً الإشكاليات اللغوية فيما يخص دلالات المصطلحات التخصصية، بجانب عدم جدية بعض الدراسات البينية، والمعوقات التى تختلف فى طبيعتها من تخصص لآخر مثل البنى التقليدية المتاحة (الإمكانات المادية والتقنية والبشرية)، وعدم قبول فكرة التغيير من جانب صناع القرار.

ومن **مشكلات المنهج** فى الدراسات البينية غياب أو ندرة البرامج الدراسية البينية فى مرحلة البكالوريوس أو الليسانس ، وكذلك فى مرحلة الدراسات العليا، الأمر الذى أعاق بلورة وتأسيس وتطوير مداخل منهجية تناسب تلك الدراسات.

من هنا - ولكى نؤصل مناهج بحثية للدراسات البينية- نحتاج إلى:

- إتاحة حزم وبرامج تعليمية فى أكثر من مجال أو تخصص دون الإخلال بوجود برامج ودراسات فى تخصصات معينة.
- إنشاء مراكز متخصصة لتحديد الدراسات البينية الأنسب والمطلوبة للقضاء على الفجوات والثغرات الناتجة عن الانفصالية بين التخصصات الدقيقة
- إنشاء كيان يعنى بإنشاء وتحديث دورى ومستمر لقاعدة علمية وتكنولوجية متميزة تهتم بالبحث العلمى فى كافة المجالات العلمية المتقدمة والتخصصات البينية
- يمكن دمج أقسام ذات تخصصات مزدوجة لتظهر بنى معرفية تناسب هذه التخصصات.

xxxxxxx